خطبة صلاة الجمعة 31/ 7/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الشفقة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَبُ).

روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«مَا مِنْ شَيءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيبلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِب الصَّومِ وَالصَّلاةِ»** [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة الثالثة والعشرون في سلسلة خطب عنوانها (**فضيلة... أخلاق تعاملية**)، بإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لايليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

عنوان خطبة اليوم: (**الشفقة**)

الشفقة في اللغة: رِقَّة في الشّيء.

وفي الاصطلاح: **عنايةٌ مختلطةٌ بخوف**؛ لأنَّ المشفِقَ يحبُّ المشفَق عليه فيعتني به ويخاف ما يلحقه من أذى.

ومنه شفقةُ الوالدِ على ولده، والطبيبِ على مريضه، والزوجةِ على زوجها، والأخِ على أخته، والإمامِ على رعيته وغيرُها.

أيها الإخوة:

الشفقة كمالٌ في الخُلُق تجعل المرء يأسى على الضعفاء، ويخاف على مصالحهم، ويغار عليهم ولهم، وإن تبلُّدَ الحسِّ وانعدامَ العاطفة نقصٌ يهوي بالإنسان إلى مرتبة الحيوان بل أدنى، فكم رأينا وسمعنا عن حيوانات ماتت ليسلم ولدها، وجاعت ليشبع صغيرُها، وهلكت لينجو رضيعُها؛ شفقة عليه.

إنها عناية مختلطة بخوف.

فالشفقة والإشفاق خلق الكاملين و **«لا تنزع الرحمة إلا من شقي»** [أبو داود].

ولا يقسو القلب إلا من سخط الرب، **«وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي»** [الترمذي].

- تزوجا فطلبَت طلاقاً بعد ثمانية عشر شهراً؛ لأنها وجدت نفسها في بيت أبيها أكثر راحة منها في بيت زوجها، وآزرها أبوها وأمها في طلبها، ولأنه أَلِفها وأوى إليها ولأنها حامل، حاول زوجُها كفَّها عن مرادها فلم تَكُف.

- وقع الطلاق والحمل في شهره السادس، فلما وضعت اتصل أبوها به من المشفى ليعلمه أن الوليد موجود في غرفة المواليد، وبإمكانه مراجعةُ المشفى لأخذه، أسرع الخُطَا ليجد الطفل عند الممرضة فاستلمه مدهوشاً سائلاً: ألا تريد أمُّه أن تراه؟ فقالوا له: لا.

ألا تريد أن تضعه على صدرها في ساعاته الأولى؟ فقالوا: لا .

خرج به من المشفى لايدري ماذا يفعل؟ أوصله إلى أمه العجوز التي اعتنت به وربَّته.

وإن تعجبوا فاعجبوا من مرور أكثرَ من عشر سنوات على هذه الحادثة، ومن ذلك اليوم لم تتصل تلك المرأة التي نقول عنها أم، لتسأل عن روح انفصلت منها هل هي بخير أو ليست كذلك؟!

إن الشفقة لاتُنزَعُ إلا من شقي.

الشفقة -أيها الإخوة- رعاية مختلطة بخوف؛ هي التي جعلت أمهاتِنا تقضين الليالي والسنين ترعينَنَا وتخفنَ أن تُقَصِّرن برعايتنا إلى أن صرنا شيئاً مذكوراً.

الشفقة رعاية مختلطة بخوف؛ هي التي جعلت الآباء يبذلون ما يبذلون ليروا أبناءهم في رُتب عالية في المجتمع.

الشفقة رعاية مختلطة بخوف، هي التي جعلت الزوجة تتحمل ماتتحمل من عسارة زوجها وقلة ذات يده، تخاف أن يضيع أولادها من بعدها إذا هي تركتهم، ولعلها تخاف أن يضيع الزوج.

الشفقة رعاية مختلطة بخوف، هي التي جعلت سيدنا عمر بن الخطاب يحمل الدقيق على ظهره إلى خيمة العجوز.

روى عبد الله بن أحمد في الفضائل بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم إذا نار، فقال يا أسلم إني لأرى ها هنا ركباً قَصَرَ بهم الليل والبرد، انطلق بنا.

فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان صغار، وقِدرٌ منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون.

فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، وكره أن يقول يا أصحاب النار.

فقالت: وعليك السلام.

فقال: أأدنو؟

فقالت: ادنُ بخير أو دع.

فدنا فقال: ما بالكم؟

قالت: قَصُر بنا الليل والبرد.

قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟

قالت: الجوع..!

قال: فأي شيء في هذه القِدر؟

قالت: ما أسكتهم به حتى يناموا، واللهُ بيننا وبين عمر!

فقال: أي رحمك الله وما يدري عمر بكم؟

قالت: يتولى عمر أمرنا ثم يغفُل عنا.

قال: فأقبل عليَّ، فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدَّقيق فأخرج عِدلاً من دقيق وكبةً من شحم فقال: احمله عليَّ.

فقلت: أنا أحمله عنك.

قال: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك.

فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها: ذرّي عليَّ وأنا أحرك لك، وجعل ينفخ تحت القِدر، ثم أنزلها فقال: أبغيني شيئاً فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول لها: أطعميهم، فلم يزل حتى شبعوا وترك عندها فضل ذلك.

وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً كنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين.

ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها فربض مربضاً، فقلت له: إن لنا شأناً غير هذا، ولا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ثم ناموا وهدأوا، فقال: يا أسلم، إنَّ الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

إنها الشفقة رعاية مختلطة بخوف.

أخرج البخاري في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنِّي أقوم إِلَى الصَّلَاة وَأَنا أُرِيد أَن أطول فِيهَا، فَأَسْمع بكاء الصَّبِي، فأتجوز فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَة أَن أشق على أمه**».

قال الشراح: (هَذَا الحَدِيث يدل على شفقته صلى الله عَلَيْهِ وَسلم ولطفه بأمته، وَقد نبه بِهَذَا على أَن الأولى بالأئمة التَّخْفِيف، وَأَنه لَا يكَاد يَخْلُو بعض المأمونين من أَمر يشغل قلبه).

وعقد الإمام مسلم في صحيحه باباً كاملاً يتحدث فيه عن شَفَقَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُمَّتِهِ وَمُبَالَغَتِهِ فِي تَحْذِيرِهِمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ، ومما أخرج فيه حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ**».

قال أبو منصور الماتريدي في تفسيره: (وقد كان عليه الصلاة والسلام مُشفِقاً بأمته رحيماً، حتى بلغت شفقته ورحمته وحُزنه على كفار قومه مبلغاً كادت نفسه تهلك فيها، كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: 8] وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ [الكهف: 6]، فالرُّسل عليهم السلام كانوا إذا أُوذُوا لم يكونوا يحزنون لمكان أنفسهم بما أُوذوا، بل كانوا يحزنون لمكان مَنْ يُؤذيهم خوفاً من أن يحلَّ بهم الهلاك والبوار بإيذائهم رسل الله تعالى).

- يموت أبٌ ويدع أيتاماً إناثاً وأمَّهم، وله إخوة ذكور هم شركاؤه في متجره ومعمله وممتلكاته، وتعجب من هؤلاء الإخوة كأنَّ الشفقة منزوعة منهم لا يعطون أيتام أخيهم الإناث ولا زوجته حصصهن من الإرث على الرغم من مرور أربعين سنة على وفاة أخيهم.

– ويموت زوجٌ مخلِّفاً زوجة وصبيين، فإذا بأم الزوج وإخوانه يُنْذِرون الكنَّة بأنها يجب أن تخلي لهم البيت بعد انتهاء أيام العدَّة مباشرة مع أن الكنَّة لا أهل لها في هذه البلدة تأوي إليهم، ولا دار لها غير هذه الدار، والحماةُ والأحماءُ في وفرة من المال وسعة.

– ويترك ثلاثةُ إخوة ذكور وثلاثُ إناث أمَّهم ترعاها دار رعاية المسنين، ويختصمون فوق ذلك على من الذي سيدفع لها في الدار، أيدفعون بالتساوي أم بحسب نصيبهم من الإرث..!

– ويسافر أبوان من دون اضطرار ويدعان أبناءهما عند الجدَّة يغيبان عنهم السنة والسنة والسنة.

عجباً للشفقة تُنزع من قلوب العباد فترفع عنهم ومنهم الرحمة.

أيها الإخوة:

إنَّ إشفاقَ بعضنا على بعض، إشفاقَ الزوج على زوجه، والوالدِ على ولده، والجارِ على جاره، والصديقِ على صديقه، والرحمِ على رحمه، والأخِ على أخيه ...خلقٌ نبيلٌ به نستمطر فرج الله تعالى، وبه نستفتح أبواب السماء، وبه نفلح وننجح.

وإنَّ قسوة القلب، وشُحَّ النفس والأثرة، واتباع الهوى، خلقٌ ذميمٌ يهوي بالفرد والمجتمع إلى مجتمع الغاب بل إلى أدنى.

وقديماً قال الصالحون: إنَّ الشفقة لم تزل بالمؤمن حتى توصله إلى خيرٍ حال.

وإني ذاكر في آخر هذه الخطبة **ثلاثةَ أمور بها تزيد في نفسك خلق الإشفاق على الخلق:**

1- الإكثار من ذكر الله، لأنَّ مَنْ أَكثَر من ذكر الله رقَّ قلبُه وسَمَت نفسه وأحبَّ الخالق، ومن امتلأ قلبه من حبِّ الله فاضَ الحب من قلبه إلى خلق الله، فسعى أن يوصل الخير إليهم ويبعد الشر عنهم، حباً لهم وشفقةً عليهم.

وأول الإشفاق للأقربين ثم الأمثل فالأمثل.

2- مهما استطعتم **أن تُغدقوا على أبنائكم حباً ورحمة وحناناً** فافعلوا، فإنَّ الإناء ينضح بما فيه، فمن تلقَّى حباً فسيعطي حباً، ومن أخذ شفقة وحناناً فسيعطي شفقة وحناناً.

3- **مصاحبة أهل الشفقة والرحمة**، لأنَّ مَنْ جالس جانس، وعدوى الروح إلى الروح أسرع من عدوى الجسد إلى الجسد.

فمن صحبت الأمهات الشفوقات، والأخوات الرحيمات، والمدرسات المحبات؛ فسيعلمْنَها بحالهن لا بمقالهن الشفقة والرحمة والمحبة.

ومن جالست الزوجات الناشزات، والأمهات الغاضبات، والصديقات العاقَّات، فسينزعن منها –بلا ريب– الشفقة والرحمة والمحبة.

وقل مثل ذلك للرجال. فصحبة أهل الشفقة ثورث الشفقة وعكسه بعكسه.

إذاً هي ثلاثة: الذكر والحب والصحبة، تقوي في نفسك الشفقة على خلق الله فتزيدك قرباً لله.

والحمد لله رب العالمين